الفصل الثامن والثلاثون

بيان جميع الخلجان التى يسقى منها كل ذى روح فى القاهرة وجميع الناس فيها

فى شهر يوليو من كل عام تغيض المياه فى كل أنحاء الدنيا، أما فى مصر فى اليوم ( )[1] من نفس هذا الشهر وهو رأس السنة القبطية الذى يسمونه (توت) يفيض ماء النيل ويموج وكأنه البحر الخضم، وبعد سبعين يوما من (توت) يرتفع منسوب النيل فى (أم القياس) بمقدار عشرين ذراعا وعندئذ يحتشد جميع أعيان القاهرة وأشرافها وعلماؤها وصلحاؤها ووزراؤها وأمراء جيشها على رأس الجسر المسمى (أبو المنجا) والواقع أسفل ساقية السلطان الغورى، ويرفعون أصواتهم بالدعاء والثناء، ويرفعون التراب الذى سد به الخليج الذى أنشأه المقوقس أثناء حكم ملوك القبط، وبذلك يفيض ماء النيل فيضانا وكأنه البحر، وينطلق ماؤه فكأنه سهم أطلق من قوس شديد.

ويمضون بقارب (الصوباشى) إلى داخل المدينة. وعلى ضفاف هذا الخليج الجارى بسيرة ثلاث ساعات من داخل المدينة وحتى جوسق الغورية قاعات وحجرات متعددة وقصور ذات أحواض وشادروانات، وعلى ساحل هذا الخليج كذلك مقاصير ذات حدائق غناء والناس فيها يمرحون ويبتهجون، ويطربون فى منازلهم ليل نهار، وتصبح مجالسهم أشبه بمجالس السلطان (حسين بيقرا)[2].

ويجرى ماء هذا الخليج ثلاثة أشهر بتمامها، تتوفر خلالها المياه لدى أهل القاهرة ولا يعانون أى نقص للمياه. ويمرحون على ضفاف هذا الخليج خمسة أشهر كاملة، وتصبح أيامهم أعيادا كعيد الأضحى، ويجالس كلٌ أحباءه ويسامرهم فى مجالس كثيرة الزينات وهم يصيدون السمك بشباكهم، وتأتى جميع الحسان إلى هذا الخليج وينزلن فى مائه

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) أحد علماء السلاطين، غلب على مدينة هراة سنة ٨٧٢ الهجرية، وجعلها حاضرة ملكه ووزر له مير على شير نوائى، فالتقيا على حب العلم وإكرام العلماء فكان قصره فى هراة مثابة لأهل العلم والفضل بسط رعايته عليهم وغمرهم بنواله، وتوفى رحمه الله عام ٩١١هـ. انظر: المعجم الفارسى العربى الجامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص١٢٤.

وهن عاريات بلا إزار ويسبحن كأنهن سمك من لجين، ويَغُصْنَ فى الماء ويصدن قلوب العشاق ويصعدن إلى الشاطئ.

وفى مواسم الخليج هذه فى القاهرة تلتقى الحسناوات مع عشاقهن بلا خوف ولا مبالاة وينزلون فى ماء الخليج ويعانق الحبيب حبيبته.

وتغدو وتروح آلاف القوارب فى الخليج، وقد زينها أصحابها بالأعلام المختلفة الألوان ويجلس شباب العرب فى مؤخرة القوارب مع محبوباتهم مرددين (مصراع):

«احمل كأس المدام فى يدك وتعال لترشفها»

يرددون هذا وهم يرشفون الشراب فى كؤوس من زجاج ويعبرون الخليج على هذه الصورة، وهم يتغنون بمختلف النغمات (مصراع): «بادروا إلى المتعة فما متعة مثلها».

ويتغنون بهذا فيستخف الطرب بمن يسمع صوتهم الرخيم.

ومنهم من يربط زورقا فى آخر، ويفرشون عليهما آلات الطرب من صنح ورباب، وناى، وطبل، وقانون، ويعزفون عليها باثنى عشر مقاما وأربعة وعشرين أصلا ويعزفون بلا انقطاع، وكأن عزفهم هو عزف الفارابى وغلام الشادى. ويدوم الحال على ذلك ليل نهار وتزين القوارب بالقناديل وتستمر الألحان مع صيحات العشاق، ولا يعد ذلك عيبا فى هذه الأيام، وفى هذا الوقت تستر مساوئ القاهرة وتبرز محاسنها.

الخليج الثانى: (خليج السلطان أوزبك)

أسفل قصر العينى، إنه خليج واسع، يخترق فى جريانه الحدائق، وينصب فى (بركة الأوزبكية)، ومنها يجرى إلى أسفل حديقة العجم حتى يصل إلى جسر الليمون، وما أكثر ما يروى هذا الخليج من حقول وبساتين، ويمر أسفل جسر (الظاهر بيبرس) ويروى أراضى (قليوب) ويغيب ماؤه هناك.

أما الخليج الذى يخترق مدينة القاهرة يمر من تحت جسر (إبراهيم باشا) الجديد شمال المدينة ويمر بساحل (جميز العبد)، ويقطع ثلاث مراحل حتى يصل إلى بلبيس ويرويها إنه خليج عظيم.

أما الخليج الآتى إلى الأوزبكية هذه فتجرى مياهه مخترقة نفس الحدائق، وفيه كذلك مكان للمتعة والطرب، إلا أنه مكان للرعاع والأراذل، وهو كالخليج الذى يخترق المدينة ليس موضعا لقوم لهم أعراض.

الخليج الثالث: (خليج السلطان برقوق)

أسفل البارود خانه، بالقرب من مدينة بولاق، وهو كذلك يروى حدائق وحقول بولاق، ويمضى ماؤه إلى (قليوب)، وبه أماكن للنزهة والمتعة كذلك.

الخليج الرابع: (خليج السلطان قايتباى)

إنه خليج عظيم بين قصر السبتية وبولاق، يمضى ماؤه إلى قليوب، ويروى أراضى الشرقية.

الخليج الخامس: (خليج السلطان ناصر الدين)

يقع بين بولاق والبلدة الصغيرة المعروفة بشبرا، ويجرى حتى الشرقية ويروى أراضيها.

وقد شق هذه الخلجان مهندسو السلف لرى جميع الولايات فى مصر، ويركب الناس القوارب فى هذه الخلجان ستة أشهر، ويحملون الغلال من إقليم إلى إقليم.

أما الملوك الذين جاءوا من بعد فقد شقوا من هذه الخلجان الترع ووزعوا ماؤها على جهات القاهرة الثلاث، وتمضى فى هذه الترع كذلك القوارب خمسة أشهر.

إنها أربعون ترعة، شقت فى خمس وأربعين بقعة فى مدينة القاهرة. وفى موسم ترع هذه الخلجان تصبح القاهرة جنة وتغزر المياه، ويعهد إلى كتخدا والى مصر أن يطهر هذه الترع وكان لزاما على كل صاحب دار - مهما كانت منزلته - أن يطهر ماء ما أمام داره أما فيما عدا ذلك فيحضر حكام ورعايا الجيزة وقليوب والشرقية الثيران والجرافات لتطهيرها، وهذا ما يتكلف فى كل عام سبعة أكياس ويعين لذلك موظف برتبة (رئيس البوابين) وتطهير هذه الترع كل ثلاثة أشهر.

- جسر السبوع:

يقع هذا الجسر أمام (يكى قابو) أى الباب الجديد ، إنه جسر متين من ثلاثة فروع وقد أنشأه السلطان ( )[1] عام ( )[2]. والسبب فى تسميته باسم جسر السبوع أنه فى مرفأ الخليج فى ناحية بولاق كان أسدان مهيبان من الرخام فى حجم الحصان من شاهدهما ظن أن لهما روحًا وكانت كل القوارب تتهيأ للحركة من هذا المرفأ وتحمل الناس إلى أى مكان يريدون الوصول إليه.

- جسر السلطان إينال:

إنه جسر خشبى من سوارى القوارب ويعبروه سيرا على الأقدام، وقد أقيم هذا الجسر للعبور إلى جامع (الجماعة) فى الناحية المقابلة للخليج، أما الآن فقد أصبح هذا الجسر طريقا عاما.

- جسر العمرسى:

إنه جسر متين على الرغم من أنه من فرع واحد.

- جسر الجماميز:

إنه جسر عظيم واسع من فرع واحد، وعلى جانبى هذا الجسر مقاهى، ذات حجرات ومقاعد وفيرة، وعليه كذلك عشرون دكانا، ومن يجلسون فى هذه المقاهى يصيدون السمك بالشص.

- جسر السنقور:

من فرع واحد إلا أنه واسع، وعلى جانبيه أكثر من أربعين دكانا ومقاهى، ذات زخارف تطل جميع نوافذها على الخليج ويتردد على هذه المقاهى علماء مصر، إن هذا الجسر طريق رئيسى عظيم.

- جسر (باب الخرق):

شيده إسكندر باشا وزير السلطان سليمان، وثمة جامع سلطانى معلق فى حارة (صانعى القدور)، وكل من يصلى فى هذا الجامع يشاهد الخليج، إنه جامع طيب

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

النسيم، وهذا الجسر من فرع واحد إلا أنه أوسع وأمتن من جميع الجسور، ويعلوه دكانا سلطانيا، أما مقهاه ففى رأس الجسر الآخر ناحية بولاق. إنه أكثر جسور القاهرة ازدحاما.

- جسر الأمير الحسين:

إنه جسر واسع عليه مقاهٍ ذات مقاصير مطلة على النيل، ويعلوه ٣٠ دكانا للزياتين والعطارين، وكل كواتها مطلة على الخليج، إنه طريق رئيسى عظيم.

- جسر الموسكى:

إنه صراط طويل مرتفع من فرع واحد، وعلى جانبيه دكاكين ذات زخارف، ومقاهٍ ذات ثلاث مقاصير ولأن من شيد هذا الجسر هو من يسمى (مثقال شرف زاده) - من مهندسى الحاكم بأمر الله - سمى هذا الجسر (قنطرة الموسكى)، إنه فى الحقيقة جسر واسع، وكل من يرتاد مقاهيه من العلماء والموسيقيين ولهم لغط فيها صباح مساء ويتجاذبون أطراف الحديث بينهم.

- جسر البيت:

إنه ليس مجرد طريق عام بل هو بيت قديم يشبه قصرا شامخا مقاما على جسر.

- جسر البيون:

يقع بالقرب من الجسر السابق ذكره، إنه جسر بنى حديثًا، وهو كذلك ليس طريقا عاما بل طريق خاص، إنه مقر متعة ونزهة لأهل العشق، ومنه توزع صنوف الأطعمة على من يغدو ويروح.

- جسر باب الشعرية:

إنه جسر عظيم من فرع واحد، وهو أوسع الجسور، وهو طريق عام مزدحم يعبره جميع أرباب الحاجات، وعلى جانبيه دكاكين، أما مقهاه فهو بعيد.

- جسر الخروب:

جسر متين البناء من فرع واحد، وعليه مقهى علوى وآخر سفلى، والسفلى منه على ضفة النيل مكان نَزِهٌ جميل، وبعضهم يدلى قدميه فى الماء ويصيد السمك بصغير

الشباك وإذا ما شاءوا نزلوا فى الماء وسبحوا. إنها مقهى جميل، ولا دكاكين فوق هذا الجسر.

- جسر الخشخاش:

جسر من فرع واحد، لا دكاكين عليه، إنه جسر قليل الزحام لأن الناس يركبون القوارب للنزهة ويمرون من تحته.

- جسر أبى الخير إبراهيم باشا:

إنه جسر متين شيد عام ١٠٨٣ من أجل عبور عتاد اليمن إلى السويس، وهو على مقربة من جامع الظاهر بيبرس خارج المدينة، إنه جسر غاية فى دقة بنائه وجمال صنعه.

- جسر الور:

من فرع واحد، وهو خارج المدينة .

- جسر جميز العبد:

إنه جسر جميل خارج الطرف الشمالى للمدينة، وهو من خيرات الملك الظاهر، ويقال لطرفى هذا الجسر (جميز العبد)، وفى هذين الطرفين أشجار جميز ضخمة لا وجود لمثلها فى مصر، زرعها عبد أسود ولما كان يصلى تحت ظلالها سميت جميز العبد، وإليها يمضى أعيان مدينة القاهرة فى القوارب ويجلسون فى ظلالها طلبا للمتعة والنزهة. إنه مكان نزهة على ضفة الخليج.

وهنا نكون قد انتهينا من الحديث عن جسور الخلجان التى تجرى داخل مدينة القاهرة.

وصفوة القول أن الجسور المقامة على خلجان مدينة القاهرة وترعها ٣٦ جسرا. لأن النيل يجرى بين ما فى جوانب مصر الأربعة من رياض وبساتين تعلوه جسور. وتجرى مياه الخلجان والترع هذه فتصبح خلجان مصر فى داخلها وخارجها مترعة بالماء.

***